

المحاكاة في هذا بالإقناع، والإقناع في تلك بالمحاكاة<sup>(١)</sup>. هذه اللفتة الخطيرة، تشير إلى ما بين الشعر والنثر من تميّع الحدود، وبرغم صحة ما جاءت به، فإنه لا يمكن إنكار ما ينطوى عليه النوعان من ظواهر تؤكد تمايزهما "ومدخل التمايز الأصيل عند القدماء يعود -غالباً- إلى الإطار الشكلي، وهو ما اتكأ عليه كثير منهم كقدامة وابن طباطبا العلوي وابن رشيق ومن سار على دربهم"<sup>(٢)</sup>.

والحق أن البحث البلاغي في سعيه لضبط خصائص كل نمط بالتركيز على ما يتمتع به من فرادة شكلية -استطاع أن يضع يده على الخاصية النوعية المميزة لكل من الشعر العمودي والنثر الأدبي، وتتأكد منهجيته عند متابعة وصفه لبنية خلصت للشعر "كالقافية" وأخرى خلصت للنثر "كالسجع" إذ يتكشف أن المواصفات التي أسندتها البلاغة لكل بنية كانت تتسق مع الخاصية النوعية للجنس الأدبي الحاضن لها. فالشعر تتأتى له طبيعة مفارقة من جهة بنائه الصوتي المتسم بالانتظام. والانتظام مفهوم شكلي علقه القدماء بالوزن والقافية، وإن ارتقى الأول مكانة خاصة، من حيث اعتبر الركن الأهم من أركان الشعر، يُمكن له في جنسه بقدر اشتماله عليه، يقول ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) "الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولها به خصوصية"<sup>(٣)</sup>. ويرى حازم القرطاجني أن "الأوزان مما يتقوّم به الشعر، ويُعد من جملة جوهره"<sup>(٤)</sup> فهو أهم المداخل إلى نظرية الأنواع في الإبداع الأدبي القديم، من حيث يكون لحضوره تأثير خاص في الفعل الشعري، وعاه النقاد العرب حينما تحدثوا عن مزية الشاعر المتأتية من تقيدته بنظامين مختلفين عليه أن يُراكب بينهما: نظام إيقاعي متمثل في وجود قالب وزني يكون -قبل الحدوث الحقيقي للفعل الشعري- اعتبارياً وسابقاً على الكلام. ونظام لغوي متضمن لعناصر الدلالة المعجمية والنحوية. وأثناء قيام الشاعر بإذابة النظامين في مساحة البيت، يضطلع الميزان الإيقاعي النظري بدور الموجّه حيث "تكون اللغة في الشعر مشدودة دلالات وهياكل إلى هذه البنية

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ت: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٩٣.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، لونجمان، ط أولى، ١٩٩٧، ص ٣٢.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٨١، ج ١، ص ١٣٤.

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، ص ٢٦٣.